قصة قصيرة

حدث هذا لجدّي سمعان الليمون في العام القادم

الياس الماس محمد

مهداة إلىٰ الأديب الذي صار شهيدا. الراحل بصمت، إسماعيل الخطاب

المقدمة . .

سمعان الليمون يأتيكم هذه الليلة، ظلاً ورقماً وسيفاً من خشب محشو بالقطن وشاة مسلوخة وخدعة أزلية وحقيقة بسيطة جريئة أرادت لها أن تستباح لحظة في أحضان امرأة من خلف التاريخ يجر خلفها زمنكم الأسود. . سمعان الليمون، يأتيكم هذه الليلة مهرجاناً للزمن الأحمق والخبز الأسود.

ما قبل البداية . .

مات جدي، سمعان الليمون، تاركاً لنا مئة عام بالتمام والكمال من الذكريات والحكم والأمثال والقصص التي تبدأ ولا تنتهي.

مات جدي تاركاً لنا صندوقاً خشبياً عتيقاً لم يفتحهُ منذ عشرين عاماً، وفي ليلة ممطرة اجتمعنا (الأبناء والأحفاد والحفيدات)، اجتمعنا حول الصندوق الخشبي العتيق.

قررنا فتح الصندوق، قال أحدهم. سنجد أوراق الطابو لأملاكه المترامية الأطراف التي لا نعرف أي شيء عنها، سوىٰ حكايات مبعثرة يطلقها جدي الراحل بين حين وآخر، بالتأكيد نجدها أوراقاً صفراء متآكلة لها رائحة التراب المرطّب، قال الثاني ماطّاً شفتيه الغليظتين، سنعثر علىٰ حكايات «السفر بر» وبقايا رحلاته الطويلة إلى الهند وشواطىء الخليج ومدنها الطينية الأسطورية، وقال الثالث بعد أن طقطقت حبات مسبحته الطويلة:

ـ بالتأكيد سنجد في الصندوق وصيّته التي طالما وعدنا بها عن أملاكه.

اقترب أكبرنا، مسح التراب وشيئاً من الصدأ، فتح الصندوق، لم نجد سوىٰ ملابس ممزقة ونياً قديماً، ضحك الجميع، تركوا الصندوق الخشبي قرب موقد النار، لملمت الخرق والتقطت الناي، صعدت إلىٰ غرفتي، هناك حيث صورة جدي قبالة السرير، وضعت رؤوس أصابعي علىٰ فتحات صغيرة علىٰ جانبي الناي، نفخت في الناي، لم أسمع

إلا هواءً ملفوظاً من الطرف الثاني من الناي، ابتسم جدي، نزل من الصورة، فالتقط الناي، ثمة عزف رائع ينساب حزيناً من بين أصابعه، فتح النافذة، خرج مودعاً إياي وثمة صوت هادىء جداً يختفي من بين أغصان الأشجار التي بللتها قطرات مطر..

استدراك «اتفق عليه معظم الرواة» رقم - ١ -

صور لحسناء عارية، ستة مناضد، ثلاثون كرسياً خشبياً، ثلاثون جسداً، فقد نصفهم التوازن قبل ساعة، امرأة مترهلة خلف البار، النعاس، ألوان فاقعة، حمراء، خضراء، وثمة خيط أخضر فاتح أسفل عينيها، هذا ما تحمله علىٰ وجهها، ببغاء متوسّطة الحجم أخضر اللون، هذا ما تحمله علىٰ كتفها المكتنز باللحم آخر جملة نطقتها الببغاء باتقان كانت «مرحباً بكم في البار الوطني».

رقم ١ - تف.. تف، مسح بقايا البصاق بكم قميصه.

رقم ٢ - أسمعت.. تناقلت مؤخراً وكالات الأنباء أن أحدهم خسر في ليلة واحدة ٦ ملايين في كازينو للقمار.

رقم ١ - تف تف

رقم ٢ - في جيبي الآن ٢٠٠ فلس وهذا يكفي لنصف قدح آخر.

رقم ١ - ألا قل لي.. أسمعت عن عيّاري بغداد؟

لم تعجبه المسألة ربما كعادته.. ارتشف بقايا القدح تلمظ وقال.

- أنهم مراهقون، ها ها - متطرفون وأنا حفيدهم المشوه.

رقم ١ - قد تقول هذا عن أبي ذر الغفار.. أليس كذلك؟

رقم ٢ - ربما.

ملاحظة: كان هذا الحوار في إحدى حانات العالم الثالث القديمة للشرب، اكتسبت جدرانها لوناً غريباً لكثرة الأوساخ والقاذورات والرائحة النتنة.

المؤلف: كتبت هذه السطور عام ١٩٧٤.. بالضبط منتصف عام ١٩٧٤.

امرأة عجوز تخيط ثوباً، تتطلع إلىٰ صورة شاب، صورة معلقة علىٰ الحائط، سيأتي بعد قليل. يطل بوجهه المترب وبملابسه الكاكية. يطرق الباب، يقبل رأسي، هيأت له كل شيء، تكلمت مع جارتي واتفقت معها علىٰ مراسيم الزفاف، كيف لا والحرب وضعت أوزارها، كان هذا شرطه الوحيد لكي يتزوج، سنوات وهي تنتظره، وعدته بثوب جديد، خيوط منقعة بماء الذهب.

ها هو ينزل من الصورة، يقبل رأسها، يرفع من عينيها المرتعشتين نظارتها الطبية السميكة، يرتدي مزهواً ثوبه الجديد.

في اليوم التالي وبالقرب من الباب جلست العجوز تخيط ثوباً، تتطلع إلىٰ صورة شاب، صورة معلقة علىٰ الحائط، سيأتي بعد قليل يطل بوجهه المترب وبملابسه الكاكية، سنوات وهي تنتظره.

هيأت له كل شيء، تخيط له ثوباً جديداً، خيوط منقعة بماء الذهب، سنوات وهي تنتظره.

رقم ١ - لدي رغبة لذيذة في إلقاء كلمة في هذا البار.

رقم ٢ - وماذا ستقول للسكارى؟

رقم ١ - نطالب بتخفيض أسعار الكحول ومنع الغش ولا تَنْسَ أن من غشنا ليس منا، ونطالب بإباحة تداول المجلات الجنسية وما قيل غير ذلك والله أعلم.

وجه رقم ١ (تعريف).

رجل في منتصف العقد الرابع، محبط ذاتياً إثر تصرّف معين سابق (ربما كان هذا التصرف السلبي...) قيل عنه إنه كان من أنشط.... أيام ما كان منتمياً.. أما اليوم فهو يستحسن اقتناء المجلات الجنسية واحتساء الكحول ومتابعة مباريات كرة القدم وقراءة الكتب التراثية والروايات البوليسية معاً، آخر ما قرأ (أصول الدافع الجنسي) تغيرت عندي قناعات ومواقف كثيرة حول الصراعات الدائرة الآن في العالم.

رقم ٢ - ها ها.. ومتىٰ كنت تملك قناعات أو مواقف خاصة بك.

وجه رقم ٢ - (تعريف).

سابقاً - رجل دين، أما اليوم فينادي بحرب طبقية حادة ويقرأ لجون بول سارتر ومعجب بشخصية أبي ذر الغفاري ومارلون براندو وأم كلثوم.

البداية..

ومات جدي سمعان الليمون، تاركاً لنا حيرة مغلفة بأسرار البحر والسفر، عن تلك المرأة السمراء ذات العينين الواسعتين التي ضاجعها في ليلة شتاء باردة، فتركت له ولداً لا يعرف جدي أي شيء عنه سوىٰ أنه جلبه معه من تلك البلاد البعيدة.

فقده عند ضفاف البحر، بحث عنه في كل الأزقة والممرات والموانىء والأسواق والأرصفة والمباغي والبارات والمساجد والكنائس، فلم يعثر علىٰ أي شيء، يحتفظ جدي بمعلومات بسيطة عنه، يتذكر أنه الآن في أواخر العقد الثالث، إذ التقىٰ بتلك المرأة التي لها حرارة النار والثلج معاً قبل ثلاثين عاماً في سفرة له إلىٰ تلك البلاد البعيدة، تلك المرأة التي نفخت في جسد جدي روح الشيطان وآلهة الحجر، لم يجد مثلها امرأة رغم سفراته العديدة. لها طعم الملح وشكل الزجاج، في لياليه كان جدي ينهي حكاياته الغريبة بتلك المرأة، ها أنذا أراه يبتعد إلىٰ غرفته مستأذناً بأن تلك المرأة تنتظره في غرفته، حينما

مات جدي صعدت إلىٰ غرفته التي بقت مغلقة احتراماً لـه منذ وفـاته، اقـترب من الباب، فتحت البـاب وإذا بامـرأة عجـوز وبالقرب منها شاب في أواخر العقد الثالث يشبه جدي . .

استدراك . . لما بعد الحرب . .

ويعود «إلياس» إلىٰ بيته وعمله بنصف جسد، جسـد متعب بعض الشيء وذكريات محفـورة في القلب عن الموضـع والحرب والنساء والموت والاصـدقاء، فقـدهم هنا وهنـاك، وشظايـا لما تزل مستقرة بـآلامها، يفتـح النافـذة، تمتلىء رئتـاه بهواء بـارد بعض الشيء يبتسم، يعـود إلىٰ حانـوتـه الصغـير وإلىٰ عمله في تصليح الساعات، يفتح الباب، يمسح التراب والغبار، تتـلألأ سطوح الساعات، تتراقص أمامه الساعات، ساعات مـربعة، دائرية، جدارية محفوظة داخل صناديق زجاجية أنيقة، وأخرىٰ منضديه، عقارب دقيقة واقفة، صامتـة، معقوفـة، زجاجـات متكسرة، ساعات ساكنة لا حياة فيها، يجلس خلف منضدته، آخر ساعة أعاد لها الزمن، كان ذ لك قبل الحرب بـأيام قليلة، يتـطلع إلىٰ أصابعـه المرتعشـة، يلتقط ساعـة، يفتـح الغـلاف الشفاف فتظهـر النوابض والأجـزاء الصغيرة الصـامتة، يـدفع الملقط الـدقيق، ترتجف أصـابعه، لا شيء يحصـل، تغيّرت يـا «إلياس»، يعود إلىٰ بيته متكئاً على عكازتيه.

في اليـوم التـالي يكتشف ولـده جـالسـاً خلف منضـدة التصليح، لحظتها يعود «إلياس» إلىٰ بيته متكئاً علىٰ عكازتيه.

استدراك مفاجيء

إذن عليها أن تترك هذا الموضـع الذي صـار جميلاً لهـا تعوّد الجنود المارّون والمجازون أن يقضوا دقـائق مع جسـدها مقـابل ثمن في هذا الموضع القديم المتروك، موضـع دبابـة غادرت إلىٰ الخطوط الأمامية، هي كانت تمـارس فعلاً حيـاتياً قبـالة المـوت المنتشر في كل جزء ولحظة، الموضع نقطة التقاء وابتعاد في نفس الوقت ما بين الموت والحياة، هم إحساس داخـلي بممارسـة غير تقليـدية في لحـظات غير اعتيـادية، لا أحـد يـأتي. لقـد رحـل الجميـع ووضعت الحرب أوزارهـا، تغادر المـوضـع، تسـير في الطرقات لعـل هناك من يلتقـطها، تتـطلع إلىٰ مجموعـة أطفال يلعبـون، إلى طلفة صغـيرة، تحتضن الطفلة، تشمّهـا، تقترب امرأة منها، تأخذ الـطفلة من أحضانها، تبتعـد المرأة مـع ابنتها الصغـيرة، تعـود إلى المـوضـع، في اليـوم التـالي تلتقط سيـارة الأوساخ جثة امرأة ميتة في الموضع القديم المتروك.

ما رواه سمعان الليمون في حضرة العائلة

قال جدي بعد أن تحلقنا حوله:

كان يا ما كان . . في سالف الزمان

مَرّت علينا أيام من الجفاف الأصفر والقحط الأسود لم تمطر فيـه السماء قـطرة مطر ولم تثمـر الأرض، فوعـدنا الـوالي بشـاة مسلوخـة، فأعـددنا كـل شيء لاستقبال الشـاة المسلوخـة التي سوف تطعم المدينة وتسدّ الرمق.

هيأنا الأغاني والهتافات والأهازيج وليس هذا فقط وإنما قتل بعضنا البعض من أجل قطعة عـظم أو بقايـا رائحة، وجـاءت القافلة المنتظرة واكتشفنا أن الشاة المسلوخة لم تكن سوىٰ جـرذ ميت محروق. وروىٰ جدي رحمه الله وأسكنه فسيـح جناتـه أن الناس صاروا عيوناً جاحظة تحيطها أسلاك شائكـة لقتل وذبـح أولادنـا وأخذوا يمـزقون أثـداء النساء من أجـل حـظوة حقـيرة وليس هذا فقط، فقد أكد جدي بـأنهم باعـوا ملابس نسـائهم من أجـل لقمـة العيش وصـاروا يستقبلون المـوتىٰ بـالأغـاني والرقص وشيدت في حينهـا جسور من جمـاجم محروقـة تدق في خرسانات صلدة، وروىٰ جدي بـأنهم كانـوا يقتسمون المـوت وأقراص الدم ضاحكين مستبشرين.

استدراك (ليست له أية علاقة بالقصة) . .

السكوت من ذهب . . والقناعة كنز لا يفنىٰ . .

بسم الله الرحمن الرحيم . .

الحمـد لله رب العالمـين . . الرحمن الـرحيم . . مالـك يـوم الدين . . إياك نعبد وإياك نستعين. إهدنا الصراط المستقيم . . صراط الـذين أنعمت عليهم، غـير المغضـوب عليهم. ولا الضالين

صدق الله العظيم . .

مات جدي سمعان الليمون وغادرتنا كلماتـه التقليديـة التي التقطها خـلال سنيّ العمل عـلىٰ السفن التي تحضر فتلفظ ما في جوفها وترحل بعيدة محملة بالمغامرين والذين يعملون فقط لملء جـزء من تجـاويف الجسـد اللدن، عمـل زيـاتـاً عـلى سفينـة إنجليزية ومساعد طباخ في سفينة يـونانيـة والتقطتـه مرّة امـرأة فرنسية من عـلىٰ الرصيف وأقسم مـرة أنه قضىٰ نصف ليلة مـع جنرال متقاعد والنصف الثاني من تلك الليلة مع زوجته مقابل مئة دولار، فأفرغ في جسديهما نصف ما التهم من التمر يتذكـر ذلك الجنرال وزوجته التي لها جلد الحرير والوفر الأبيض، نزل متعباً من سفينة عمل علىٰ ظهرها ثلاثة أشهر لم يَرَ فيها يابسة أو جسـد امرأة، سيـارة فاخـرة وثمـة وجـه شمعي محمّـر وقنـاني مرصوفـة في علب أنيقة في الحـوض الخلفي، أخرج ذو الـوجه الشمعي وريقات نقدية لم يلتفت إليه، أضاف أوراقاً أخـرىٰ، أشـار له جـدي بأصـابعه بعـد أن التقط حزمـة الأوراق، دسّ جـدي أصابعـه في جيبـه العلوي، التقط سـاعـة ذات سلسلة فضية، وصلا إلىٰ البيت، صعدا إلى الغرفـة، إستلقىٰ الجنرال علىٰ بطنـه، خرج جـدي من الغرفـة حامـلاً قنينة خمـر يرتشف منهـا، رأىٰ امرأة لهـا جلد أكريـد والوفـر الأبيض، تتـطلع إلىٰ

الجزء الأوسط من جسد جدي، يرتفع تكوّرٌ لحمي، تقترب منه، تخلع بنطاله، تستلقي بين فخذيه، يلبس ثوب الجنرال، تعلق المرأة على صدره الأوسمة والنياشين، يصرخ جدي ويأمر، يعتمر قبعة دائرية خضراء اللون مخططة باللون الأخضر الفاتح، وحده الذي يصرخ ويأمر، يعلو صوته وهي تضحك كما لو أنها لم تضحك من قبل.

مات جدي سمعان الليمون تاركاً لنا صوره المتناثرة هنا وهناك، صورة كبيرة تنتصف غرفة الاستقبال، صورة له في أيام شبابه، عضلات مفتولة، شوارب كثه، عيون جاحظة ووشم قديم على ساعده الأيسر، في آخر أيامه لم تعد أصابعه الخيطية الضئيلة تتحرك، فقط مجرد ارتعاشات مستمرة لأسلاك لحمية متغضنة.

ثمة صورة أخرى في غرفة التلفزيون «بملابس الأفندية»، وأخرى في الممر، التقطت له أيام كان يعمل في مدّ الأنابيب، وقف قرب أنبوب ضخم (قضيت عشرة أعوام بين هذه الأنابيب وكنت أحسّ نفسي أنبوباً بشرياً، أنبوباً من لحم ودم ملتصقاً بالأنابيب الأخرى، لا.. ربما الأنبوب الأهم).. كثيراً ما كان يردد هذه الكلمات عندما يتطلع إلى هذه الصورة..

مات جدي وبقيت صوره هنا وهناك تعيش بيننا كما لو أنه لما يزل بيننا، أحفاده الصغار ينتظرون الصباح فيخرج كل واحد منهم، تقف أمام صوره لحظة صمت، قداس غريب في بيتنا، ما زلنا نمارسه منذ سنوات، قداس ميت لا حياة فيه.

١٩٨٨

* * *

ملاحظة نقدية من المؤلف:

قصة محشوة بالنماذج والصور المتناقضة، ما علاقة سمعان الليمون بالحوار الدائر في البار القديم المسمى بالبار الوطني؟ والأغرب من هذا أين موقع «الاستدراكات» من هذه العلاقات المفككة التي جاءت مشوّهة!

ثم تساؤل: أين الحدث الرئيسي؟!

لم نجد أي حدث رئيسي مركزي يشد كل هذه الانتقالات المفاجئة والبطيئة إلى جوانبه بالإضافة إلى أن الشخصية الرئيسية «سمعان الليمون» شخصية مهزوزه وغير واضحة الملامح.

بغداد

صدر حديثاً

تحت الشبكة

رواية تأليف: ايريس مردوخ

«أقبلت «مادج» نحوي. وكانت عيناها في صلابة العقيق، قالت: «هذه هي الحياة الحقيقية، يا جيك. خير لك أن تصحو». وضربتني بشدة فوق فمي. فتراجعت قليلاً من جرّاء الألم المباغت الذي أحدثته اللطمة. وقفنا لحظة في هذا الوضع، وصمدت لنظرتي على حين كانت الدموع تتجمع ببطء في عينيها. وعندئذٍ، تلقيتها بين ذراعيّ.

قالت «مادج» وقد دفنت رأسها بين كتفي: «جيك، لا تتركني».

وحملتها تقريباً إلى مقعدها. كنت أحس بالهدوء والعزم. ركعت إلى جانبها، وأخذت رأسها وأنا أمشط شعرها إلى الوراء بيدي. وارتفع وجهها نحوي كزهرة متصاعدة».

منشورات دار الآداب